مأساة من سوفوكليس

٣ ـ أنتيجونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٦ —

« تدخل إسمنيه فيخاطبها الملك »

— « ها ! هلا ! أيتها الحية الرقطاء التي ما تبرح تتحوى هي وأختها تحت عرشي ! ماذا عندك من سموم تنفثينها ؟ خبري ! ألست ذات ضلع في هذه المأساة ؟ أم انك ستحلفين بأغلظ الايمان أنك لا تعرفين منها قُلاً ولا كثراً ؟ »

— « إن كانت هي قد حدّثت عني بشيء ، فأنا شريكتها في كل شيء ، ولن أقول شيئاً أتحلل به من نصيبي في القصاص !

فتقول أنتيجونى : « حاشا ! تأبى العدالة أن يحمل البريء وزر الجاني ! أنا وحدي اضطلعت بكل شيء ، ولقد رفضت أن أشركك في أي شيء ! »

— « ولكني لن أدعك في تلك الملمة وحدك ! »

— « الحنان من طرف اللسان لا يعنيني يا أختاه ! الآلهة وحدها تعلم من فعل الفعلة »

— « أوّه ! أنت تأبين على أن أقاسمك شرف الموت معك من أجل شقيق ! »

— « لا ينبغي أن تموتي معي من أجل شيء لم تجنيه ! حسب أخي أن تموت أخت له واحدة في سبيله ! »

— « وماذا أسيغ من مباهج الحياة بعدك يا أختاه ! »

— « سلي كريون يجيك ! إنه كفيل لك بكل هذه المباهج ! »

— « وماذا يسرك من إيلامي ووخزي هكذا ؟ ! »

— « قلبي مفعم بالألم ، ومن أجل ذلك فشفتاي تضحكان عليك ! »

— « وهل لك حاجة أستطيع أن أؤديها لك الآن يا أختاه ؟ »

— « أجل ! حاجتي إليك أن تنجي بحياتك ! »

— « وا أسفاه ! أهكذا يحال بيني وبين مشاركتك هذا الجهد ؟ »

— « ولهْ ؟ قد اخترت الحياة ، أما أنا فقد فضلت الموت ! »

— « لقد نصحت لك ! »

— « أجل ! لقد نصحت لي ! وقد يحمد لك تيهك في هذا العالم الفاني ، أما أنا ، فستحمد لي الآلهة تفانيّ وحكمتي في العالم الباقي ! »

— « ولكنا سيان في هذه الزلة

— « لا تزعجي يا عزيزتي ! ستعيشين طويلاً ! أما أنا ، فقد قدمت حياتي قرباناً للموتى منذ زمن طويل . واذ يبلغ حوارهما هذا الحد ، يقول الملك : « إحدى الفتاتين قد فقدت صوابها كله ، أما الأخرى ... فلا صواب في رأسها البتة ! !

فتقول إسمنيه : « مولاي ! في مثل هذه المحنة لا يملك أحد صوابه ! »

فيقول الملك : « على كل حال لقد فقدتِ صوابك بمحاولتك مشاركة هذه المجرمة في إجرامها !

— « وما قيمة الحياة لدي إذا فقدت أختي يا مولاي ؟

— « لا تقولي أختي ! إنها لا شيء ! لا شيء منذ الآن !

— « ماذا ! ! أتقتل خطيبة ولدك ؟ أتقتل أنتيجونى ؟ »

— « النساء كثير يا إسمنيه ! »

— « والحب ! ! الحب الذي ألّف بين قلبيهما يا مولاي ؟ »

— « ومن يبتغي رفيق إفك وعرس خبث لولده ؟ »

وما يكاد الملك يقولها حتى تنتفض أنتيجونى انتفاضة هائلة وتقول :

— « هايمون ! حبيبي هايمون ! كم ذا يسيء أبوك اليك ! »

فيقول الملك : « بل أنت وزيجتك النكراء شجو على ، وظلام في حياتي !

ويتساءل رئيس المنشدين : « وهل تفصل بينهما يا مولاي ؟ أتحول بينها وبين ولدك ؟ »

فيقول الملك : « انه الموت وحده سيحول بينهما ! »

— « اذن ... انقشعت سحب الريب ! ستقتل الفتاة ! »

— « ما في ذلك شك ! أيها الجنود ! هلموا بها الى السجن ! ستذوب شجاعتها حين يقترب الموت من عينيها العنيدتين ... »

« يقودها الجنود إلى الداخل وتتبعهم إسمنيه في أثرها »

— ٧ —

ويأخذ المنشدون في نشيد طويل حلو ملىء بالعبرة مبلل

بالدموع ، ويذكرون محنة بيت قدموس منشىء طيبة وجد أوديب ، ثم يرتلون صلاة شعرية لزيوس مايوشكون يفرغون منها حتى يقبل هايمون المسكين العاشق — خطيب أنتيجونى — فيخاطب رئيس الخورس الملك قائلاً :

— « هايمون أيها الملك ! ولدك الأوحد ، وآخر عُسلوج فى دوحتك ! ها هو ذا مقبلا وقد حطمه الهم ، وهدمته المصيبة الفادحة .. . أوه ! إنه يبكى ! يا للآلهة ! أيذرف الدمع من أجل حبيبته ... الضحية ؟ أم هو قد جاء يلتمس منها نظرة للوداع ؟! »

« يدخل هايمون »

— « من يستطيع أن يحدس ؟ سنعلم كل شىء فانتظر . (مخاطباً ولده) أحق يا بنى أنك جئت الى هنا مدفوعاً بثورة من الهم مما آل اليه أمر خطيبتك ؟ أكبر ظنى أن حبك اباك سيرجح عندك كل حب ، وطاعتك اياه ستبرر لديك تصرفاته مهما تكن ! »

ويصبر قليلاً كمن جف لسانه من الظمأ والغشية ، ويقول : « أنا ابنك يا أبتاه ! سأخضع لكل ما ترى من رأى ، ولن أؤثر على محبتك أجل حبان الخلد »

— « بورك فيك يا ولدى ! لقد كان هذا أكبر رجائى فى رجاحة عقلك وعظم قلبك ! إنه ليس أحب إلى الآباء من ذرية صالحة طيّعة يخزون بها الأعداء ، ويسرون بها الأصدقاء ؛ وإنى لأثق أن هايمون اللبيب لن يفقد صوابه من أجل امرأة ! اسحقها يا بنى كما تسحق ألد أعدائك ، وابعث بروحها الشريرة تبحث لها من زوج شرير فى ظلال هيدز ! ! لقد ثارت وحدها على الملك وعلى مجلس طيبة ، وقد صممنا على إعدامها من أجل ذلك ، ولن ننكص على أعقابنا فيما أبرمنا ! إننا هنا لا يُعلى علينا ونحن أصحاب الأمر والنهى ، وقد ركزت المدينة الخالدة سلطانها المبين فى شخصنا فيجب أن نُطاع إطلاقاً ولو كانت أوامرنا ضرباً من الشطط ... إنه لا يهدم عظمة الشعوب كقيام الرعية ضد ملوكها ولا يهزم الجيش المرصرص ذا الأيد كعصيان جنوده قواده ! وسيرى الجميع أننى هنا لأحمى القانون ، وأننى لست هنا لأذل أو أتقهقر امام امرأة ! »

ويقترب رئيس الخورس من الملك فيقول : « الحق قلت ، والحق دائماً تقول ! »

ويتقدم هايمون الى أبيه الملك ، ويشهق شهقة هادئة ويقول :

— « مولاى ! السداد بذرة صالحة تزرعها الآلهة فى نفوس الصالحين ! ألا كبرت كلمة أن أقول انك أخطأت يا أبى ! ولكنى كابنك الأمين أرى لزاماً على أن أتقصى أقوال الناس وأفعالهم ، بل وآراءهم أيضاً فى ملكى الذى هو والدى ؛ وأكبر ظنى أن سلطان الملك يلجم أفواه الناس فما يجيرون ؛ بيد أننى سمعت همساً أن الطيبيين على بكرة أبيهم يذرفون الدمع مدرارا من أجل الفتاة التى أمرت باعدامها ، وأنهم يرون فى قضية القتيل رأيها ويؤيدونها كل التأييد . على أنها ماذا صنعت هذه الفتاة ؟! لقد دفنت أخاها الذى غودر مضرجا بدمه ، معفرا بثرى الجلبة ، وأشفقت أن تدعه لكلاب الفلاة وبواشق الطير تنوشه وتتغذى به .... ألا وآلهة الأولمب إنها بالمكافأة أخلق ، وبالعطف والاعجاب أحرى ! بذلك تتلجلج ألسن القوم يا أبتاه ، وهم يرددونه فى كل مكان ، فمن لك بمن يبلغك أقاويلهم غير ابنك الذى يحرص على سمعتك ونقائك كما تجهد أنت أن تبنى له مستقبله وشهرته !! أبدا لا تسمع للذين يفتنونك عن نفسك حين يقولون لك انك لا تعمل الا الصواب ولا تنطق عن الهوى .: فمثل ذلك لا يكون بشراً ، فى حين يخطئ البشر ويصيبون ! ألا وان من بدعى أنه أحكم الناس واطيبهم كلمة يتكشف لك اذا خبرته عن خواء ، وعن فؤاد هواء ! أبى ! ليس فى الاصاخة للحق ما يُخجل ، ولا فى الرجوع عن الخطل ما يخزى ! ألا وان أضعف الكلأ ليقف لسيل العرم لأنه يلين له ، فى حين يجرف سيل العرم أذهب الدوح فى السماء لأنه يأبى أن يلين لشىء ! ألا وان الملاح الذى لا يرخى العنان لهوج الرياح يكسر قلاعه ويفقد فى اللجة آماله ، فأى عار فى أن تلين يا أعز الآباء ؟ ! اننى ما أدعى الحكمة ، ولا أقول بعلم كل شى ، ولكنك غذوتنى ، ونشأتنى على الرأى السديد والتبصر ، فأنا أعظك أن تكون ممن لا يرى الا رأيه ، أو يتبع هواه فيردى ! »

ويلمح رئيس الخورس وجوماً بين الأب وابنه فيتدخل قائلاً :

— « مولاى ! لا ضير أن تصغى لما فى نصيحته من حق وانت يا هايمون ينبغى أن تنتفع بتجاريب مولاك ! »

فيقول الملك : « ها ... هاها ... بعد هذه السنين وذلك

الشيب يرشدنا هذا الصبي الطرير !! »

فيقول هايمون : « بما هو حق فحسب ؟ ولا حساب للسنين في ضرورة تنزل بك تلهرية ! »

— « وأي ضرورة في أن تلوذ بأذيال الثائرين ؟ »

— « أبداً لم ألذ بأذيال مجرم أفاق يا أبي ! »

— «وله ؟ أليست قد نهضت عليها الأدلة ودمغتها البراهين»

— « حاشا : إن طيبة كلها تنكر ذلك ؟ ! »

— « وهل طيبة تحكمني أم أنا الذي أحكم طيبة ؟ »

— « في الحق انها هي ... لولا أن تُسَفِّه نعومة سني وتنسبني للزق !

— « أي ان آخرين يشركونني في أمري ؟ ! »

— « ان رجلاً بمفرده لايقوم مقام مدينة بأسرها يا أبي ! »

— « أو ليست كل مدينة في قبضة ملكها ؟ »

— « هذا اذا كان الملك يحكم كشباناً في صحراء !

ويكون الملك قد عيل صبره فيقول :

— « اذن ... أنت حامي المرأة أيها البطل الصغير ؟ »

— أنت هو المرأة ! ... وأنت وحدك الذي تعنيني ! ! »

— « وقح ! ! تأبى إلا أن تناقش أباك ... سفسطة ! ! »

— « بل أجهد أن أردك عن التمادي في خطئك ! »

— « وأي خطأ في أن أؤيد سلطاني وأحفظ وقاري ؟ »

— « وأي وقار في تحقير الآلهة ؟ »

— « أيها الشرير ! يا من تأخذ بزمامك امرأة ؟ »

— « أجل ... ولكنها لن تقودني الى مفسدة ! »

— « ولذا بذلت لها دفاعك ! »

— « بل بذلته لك ولي ... وبذلته من أجل الآلهة في الدار الآخرة ! »

— « انها لن تعيش حتى تكون زوجتك في هذه الدار الأولى ! »

— « أعرف ... وأعرف أيضاً من تكون سبب خرابه وانهياره بموتها ! ؟ »

— « هه ! أنت تهدد وتتوعد أيها العاق (ياقليل الأدب !)»

— « ليس يتوعد ولا يهدد من يقول قولة الحق ... والحق الصراح ! »

— « هه... هاها...ستدفع ثمن هذه القحة ! أيها الناصح الغبي ! »

— « لو لم تكن ملكي وأبي ، لزعمتك مذهوباً به ! ! »

— « أنت ! أيها الفتون ! يا من تصبيك امرأة ! أصمت ! لا ترد علي !»

— « ليكون كل الكلام لك ! »

— « محال ! هذا محال ! لا بد أن تجرع كأس المنون بين يدي عشيقها ! لا بد أن تردى أمام ناظريه وملء عينيه ! الى بها . . . »

— « بل هذا هو المحال ! لا تحلم يا أبتاه بتجريعها كأس الموت من يديك أمام ناظري ... بل لا تحلم بأن تراني آخر الدهر بعد الآن ! » (١)

« وينطلق هايمون »

— ٨ —

ويقول رئيس النشدين : « مولاي ! لقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ، والشباب الغضب يركب رأسه اذا أهين كبرياؤه ، وقد يأتي من الفعال ما لا تحمد عقباه !

— « ليفعل ما بدا له ! ليركب رأسه في طريق من الشوك انه لن ينقذ الفتاتين مما قسم لهما »

— « الفتاتان ! وهل تُقتلان كلتاهما ؟ »

— « معك حق ! بل الطائشة وحدها ... تلك التي فعلت الفعلة ! »

— « وبأية طريقة توقع عليها عقوبة الاعدام ؟ »

— « في القبو ! ! القبو المظلم تحت هذا القصر . ستنفرد فيه وسيفرش لها مهاد من الشوك يخز روحها وبدنها حتى تموت ولتعبد هنالك آلهتها ... آلهة الفناء ... حتى تقضي فيها قضاءها ... »

« ويخرج كريون »

(لها بقية)

دريني خشبة

(١) تحسب أن هذه الثورة من سوفوكليس على سلطان الآباء هي الأولى من نوعها في تاريخ الأدب . وكم تلذ المقارنة في ذلك بينه وبين صمويل بطلر في كتابه (The Way of all Flesh) وبينه وبين شو في قصته (Misalliance)

تصحيح

جاء في مقال « مقتل أبي الطيب المتنبي » المنشور في هذا العدد صفحة ١٢١٤ سطر ١٣ من العمود الأول : « نقام فانك ونفض ثوبه من رتوت الأعاريب الخ ... » وصوابه : « نقام فانك ونفض ثوبه وجم من رتوت الأعاريب ... »